المبحث الثالث

الأمن الفكـــري

الأمن الفكري هو القاعدة التي ترتكز عليها جوانب الأمن الاجتماعي الأخرى معيشيَّةً واقتصاديَّةً وسياسيَّةً وغيرها، فإذا اخترقتْ هذه القاعدة وأصاب مجال الفكر اضطرابٌ وخللٌ، ودمَّرته الأفكار الغازية وجرفته الفلسفاتُ والنَّظريَّاتُ التي تفقد المنطق السَّليم والحقائق اليقينيَّة الهادية؛ فإنَّ هذا الفكر « فكر المجتمع وفكر الأمَّة » يتحطَّم ويمسخ ويصبح أشتاتاً ممزَّقةً يحطِّم بضعها بعضاً، وعند هذا لا رجاء في نهوض اجتماعيٍّ لهذا المجتمع لا سياسياً ولا اجتماعيّاً ولا اقتصاديّاً ولا سواها.

وحالة أغلب مجتمعات المسلمين اليوم دليلٌ واضحٌ على ما قرَّرناه.

وميزة المجتمعات المسلمة - عربيَّةً وغير عربيَّة- أنَّ أمنها الفكري مرتبطٌ بالتزامها بالإسلام بصفته الركيزة الثقافيَّة التي تقوم عليها وتنطلق منها هذه المجتمعات؛ فإذا حاربت الإسلام أو فقط أهملته وتبنَّتْ ركائز أخرى لنهضتها فإنها تكون بهذا التبنِّيْ قد جلبتْ لنفسها الشقاء ابتداءً بالجانب الفكري الذي يتمزَّق فيه المسلم بين عقيدته الرّاسخة في أعماق عقله وقلبه وبين المنهج المستورد الذي يطلب منه أن يمنحه ولاءه، وأن يتمثَّله فكريّاً ليأخذ به عمليّاً.

أمَّا إذا التزم المجتمع بالإسلام منهجاً يعتمده في حياته ورسالةً يحملها في المعترك الحضاري فإنه يحمي نفسه ضدَّ الكوارث التي تتَّجه إلى أفكاره لضربها، ويحقِّق الانسجام المتناغم بين مبادئه الفطريَّة الإنسانيَّة وحقائقه الدِّينيَّة وخططه وتنظيماته الحضاريَّة، ممَّا يكسبه أمناً فكريّاً ينشر آثاره على جوانب حياته كلّها.

والمملكة العربيَّة السعوديَّة حينما تبنَّت الإسلام رسالةً للدَّولة والمجتمع؛ في سياستها التعليميَّة التي تصوغ عقول الناشئة، وفي أحكامها القضائيَّة التي بها تقام الحقوق بين مقضيّ عليهم ومقضيّ لهم، وفي نظامها العام الذي حاولت استبعاد ما يخالف الشريعة فيه حقَّقتْ بذلك أمناً فكريّاً للمجتمع السُّعودي قوامه عقيدةٌ صافيةٌ، وقناعةٌ بالمنهج العلمي، وحصانةٌ ضدَّ الأفكار الضارَّة، وتفاعلٌ متبادلٌ بين الجمهور وعلماء الشريعة، وولاة الأمر، حيث تتحد الروح الوطنيَّة بالولاء الدِّيني، وتمتشج الجهود العلميَّة والعمليَّة لخدمة المجتمع وتحقيق المصالح بالتعبُّد والإيمان والخلافة الإنسانيَّة المكلَّف بها الإنسان في هذه الأرض.

وممَّا ينبغي وعيه أنَّ الأمن الفكري في الإطار الإسلامي ليس مجرَّد قضايا فلسفيَّة أو تجريدات فكريَّة تعني قطاعاً من المثقَّفين المهتمِّين بمسائل ذهنيَّة بعيدة عن الواقع.

إنَّ الأمن الفكري في إطار الإسلام هو قاعدة الوجود الصَّحيح للفرد والمجتمع المسلم سلامةً في العقيدة، وزكاءً وسموّاً للسُّلوك، وإنسانيَّةً للعلاقات الاجتماعيَّة.

ولهذا نجد أنَّ وعي المسؤولين في المجتمع السّعودي -وبالذات المعنيِّين مباشرةً بقضيَّة الأمن بهذه المسألة- يحفزهم الاهتمام بالأمن الفكري في المملكة للتوعية بضرورة الاختراقات الإعلاميَّة والثقافيَّة التي يخشى من إضرارها به ومن ثَمَّ تدميرها للمجتمع.

سأتناول بعض النقاط التي تجلي شيئاً من صورة الأمن الفكري في المملكة بسبب تطبيقها للشريعة الإسلاميَّة على النحو التالي:

* عرفنا فيما سبق أنَّ السياسة التعليميَّة في المملكة التزمتْ بالمنهج السَّلفي الذي عماده التلقي من القرآن الكريم والسنة المشرَّفة وفق فهم صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان .

وكان مقتضى هذا الالتزام قيام مناهج التعليم بغرس العقيدة الصَّافية في نفوس الناشئة بكل تفصيلاتها المتعلِّقة بالله وأسمائه وصفاته وقضائه وقدره ، وبالكون والإنسان، وبالنبوَّة والغيبيَّات .

وفي المقابل استبعدتْ كلَّ النظريَّات الإلحاديَّة المستهترة بالغيبيّات والمشكّكة في الذات الإلهيَّة، والمنكرة للحياة الآخرة، والمتخرِّصة التي تنسج تصوُّرات وهميَّةً عن أصل الكون والإنسان مخالفةً لما قرَّره الوحي، فلم تدرس في المراحل الدنيا، وحاولت وزارة المعارف تطهير المناهج من المزالق اللَّفظيَّة التي قد ترد في بعض مقرّرات العلوم التجريبيَّة كالفيزياء والكيمياء والأحياء .

وقد أثمر هذا المسلك التعليمي الإسلامي ثماراً طيِّبةً تبلورتْ في سلامة عقول الناشئة، من التشوُّشات الفكريَّة الخطيرة على الاعتقاد، وفي وضوح التصوّر الإسلامي لديهم، وتركزه في أذهانهم ونفوسهم، وفي قوَّة الطَّرد التي زرعتها هذه العقيدة في عقولهم للشبه العقديَّة التي قد ترد عليهم من خلال كتاب يقرأ، أو وسيلة إعلاميَّة ونحو ذلك، حيث تبدو تلك الشبه وإن تزيَّتْ بزيِّ النظريَّات العلميَّة لدى هذه العقليَّة أساطير خرافيَّة نسجتها عقولٌ تائهةٌ عن الحقائق.

ويمكن أن نقارن ببعض مجتمعات المسلمين التي صيغتْ سياستها التعليميَّة تحت تأثيرات تغريبيَّة فحُشيتْ مناهجها بمصادمات للعقيدة الإسلاميَّة تساق بصفتها حقائق تاريخيَّة وكونيَّة مع خفوت للتصوُّر الإسلامي الصحيح :

« التفكيرات الغيبيَّة هي سبب تخلُّف المجتمعات » .
« الإيمان بالقوى الغيبيَّة تنكُّر للقوانين العلميَّة » .
« القول بالخلق المستقل للإنسان أسطورةٌ لم يَعُدْ يقبلها العلم الحديث » .

. . . إلى آخر مثل هذه الألغام التي تطمس فِطَر الشباب وتلوِّث أذهانهم، فتخرج مزعزعةَ الفكر، سقيمة التفكير، مشوَّهة الاعتقاد، مضطربة الموقف بين دينها الذي تحن إليه نفسياً، وتتشكَّك فيه عقدياً، وبين فكر عصرها الذي تنزع إليه بجاذبيَّة تعلمها له، وتشقى به لمصادمته دينها .

إنَّ الأمان الفكري لا يتحقَّق إلا بعقيدة صافية صحيحة تتبلور في العقل، وتتركَّز في النفس، وتتضح جوانبها كلها للفكر، وهنا :

- يتحقق السَّلام بين المبادئ الفطريَّة الراسخة في كيان الإنسان؛ عبوديَّةً لله، وشعوراً بإنسانيَّته، وتسامياً نحو مكارم الأخلاق، وبين هذه العقيدة التي لا تكون صحيحةً إلا إذا جاءتْ مطابقةً لتلك المبادئ .

وهذا ما يتحقق بالعقيدة الإسلاميَّة التي أوحى بها خالق الإنسان وفاطره .

- كما يتحقق السَّلام بين هذه العقيدة وحركة الإنسان في الحياة؛ لأن هذه العقيدة إذا رسختْ في شخصيَّته كيَّفتْ حياته وفق مقتضاها فحصل الانسجام .

أمَّا إذا كانت العقيدة باهتةً أو مغمورةً بمسالك فكريَّة تقتضي توجيهاً للحياة يخالفها فإنَّ الشقاء نصيب صاحبها ، وإلا فكيف حال شخص يؤمن بأنَّ الدنيا دار ممرٍّ والآخرة هي دار القرار وفيها الجزاء الأكبر والمصير النهائي لآباد السنين، ولكنه انسياقاً مع تلك المسالك الفكريَّة لا يتجاوز

في خططه، ولا في غاياته العلميَّة والسُّلوكيَّة دائرة هذه الدنيا المحدودة معرضاً عن تلك الحياة التي يؤمن بها نظريّاً، ألا يكون هذا الشخص في محنة ماحقة ملازمة له في كل حال ومع كلِّ لحظة تفكير وأمام كل خطة أو تصوُّر يضعه لنفسه أو لمجتمعه .

إنَّ كثيراً من الذين يعيشون التذبذب العقدي والأزمات الفكريَّة سواء كانوا على مستوى الشباب المتعلم أو على مستوى المثقَّفين إنما هم- أو كثيرٌ منهم على الأقل- ضحايا مناهج تعليم تفقد التصور الإسلامي السَّليم الذي يصوغ الشخصيَّة الفكريَّة صياغةً متكاملةً تنضجه ليتعامل مع الأفكار بعد ذلك من خلال قاعدة عقديَّة راسخة واضحة .

إنهم ضحايا مناهج تعليم زرعتْ في نفوسهم عناصر سامةً، فلم تستطع نفوسهم - نتيجة فقدانها التصوُّر الصحيح- أن تطرد هذه العناصر وتلفظها، ولم تستطع هذه السموم أن تقضي على كل بذرِ الفطرة وبقايا الإيمان التقليدي في نفوسهم فتحوِّلهم إلى كفرٍ مسخٍ مبتورِ الصلة بدينه وبأمته وبفطرته[1]، ومن ثم ظلُّوا ضحايا صراعٍ نفسيٍّ وفكريٍّ لا يريم .

* كذلك فقد اقتضى تطبيق المملكة للشريعة الإسلاميَّة التي من قواعدها سدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك والكفر والضلال عدم السَّماح لأهل الكفر والضلال بإقامة أوكارهم التي من خلالها يبثُّون سمومهم، ويجتذبون السذج إلى موائدهم المأفونة، كما فعلوا في البلاد الأخرى التي فتحتْ لهم الأبواب لإنشاء محافلهم الماسونيَّة ونواديهم، ومراكزهم كالروتاري والليونز وحركات

(١) حتى الذين تمسخهم إلى درجة الكفر الصراح تبقى في طوايا نفوسهم عناصر مقلقة لحياتهم مصدرها ذلك الدين الذي هربوا منه ، يقول الطاهر لبيب : « إن صديقاً له شيوعيّاً عربياً قال له : إني على الرغم من أني أحارب الدين ولكنه قائمٌ في حسِّي، فأنا إذا ركبتُ طائرةً دعوتُ ببعض الأدعية» . انظر : الإنتلجنسيا العربية، تحرير سعد الدين إبراهيم ، ص ٣٥، الطبعة الأولى، عمان ،١٩٨٨م، .

التنصير ومدارس التغريب ونحوها، وكمثل التبادل الثقافي الذي يتحوَّل إلى استلاب ثقافيٍّ للمجتمع المسلم أمام المجتمع الآخر الذي له أهدافه الواضحة، وتحفزه الحيُّ لتحقيق هذه الأهداف بعكس مقابله .

لقد قامت هذه النوادي والحركات والمدارس على اختلاف أهدافها بجهود خطيرة في كثير من مجتمعات المسلمين تمثَّلتْ أوَّل ما تمثَّلتْ في اختراق أفكار كثير من المثقَّفين والقادة والشباب، فانحرفتْ بها من الولاء لدينها ومجتمعاتها إلى ولاء تائه أو ولاء لأعداء أمتها، ومن الإيمان بقيم دينها وأمتها إلى اللّهاث وراء شعارات من صنع أعدائها مما لا يستقيم في بيئاتهم .

إنَّ هذه المنظمات والحركات والمدارس المشبوهة أصبحتْ في كثير من بلاد المسلمين كأوكار المخدِّرات التي تتصيَّد البريء لتوقعه في فخِّها فلا يستطيع الانفلات منها بعد ذلك، ولذلك يتحاماها المخلصون لأوطانهم المنتمون لدينهم كما يتحامون هذه الأوكار ، وكما يتحامون مواقع الألغام محاذرين أن يصيبهم من وبائها عطبٌ مدنِّسٌ .

إنَّ خلوَّ المملكة من هذه المنظَّمات والحركات والمدارس من أعظم ميزاتها ومن أبلغ المؤثِّرات التي حفظتْ لها أمنها الفكري وسلامتها من الزَّيغ عن الولاء للدِّين أو الوطن حتى إنَّ أيَّ بادرة تشمُّ منها رائحة هذا الزيغ لدى متأثِّر بالتغريب، أو مقلد لأهل التيه المستغربين من الشعراء أو المثقَّفين تبدو -هذه البادرة- نشازاً تستوحش حتى منه نفوس العامَّة، وتنفعل بسببه القلوب ويكثر التساؤل حولها حتى تموت .

* ومن أهمِّ وأبرز الجوانب التي لها أثرٌ في تحقيق الأمن الفكري الذي نحن بصدده ما أكدنا مراراً وهو اعتماد الوحي الإلهي في قضايا الغيب

والاستغناء به عن تجديف العقل القاصر فيما لا طاقة له به .

إنَّ من أكبر عوامل تدمير العقل الإنساني وإفساد نوره العقلي الذي به يفهم الأشياء ويحلِّلها ويحكم عليها، إقحامَه في ميدان الغيبيات ليبحث ويقرِّر فيها .

ولهذا نجد أنَّ المجتمعات البشريَّة خلال تاريخها إذا اتجهتْ العقول فيها إلى البحث في ميدان الغيبيات ووضع التصوُّرات عنه كان ذلك أمارةَ تدهورها الحضاري وشللها الفكري وتيهها في الحياة .

لقد ظلَّ اليونان قروناً متطاولةً يعيش في وهم الخرافات والأساطير التي يصوغها له فلاسفته عن الوجود حتى أدرك الغربيون أخيراً : « أنَّ العقل سيظلُّ صاغراً متسوّلاً أمام ساحة تلك القوَّة الخفيَّة الكبرى (الغيب) لا يستطيع أن يطأ حماها »[1]، وأنَّ الفلسفة ما هي إلا خرافات وحيراتٌ ذهنيَّةٌ تشغل الناس عن الاهتمام بما هو أجدى في حياتهم ؛ ولهذا خرج عديدٌ من الكتب التي تسخر من الفلسفة واصفةً إيَّاها بالعجز والإفلاس واعتماد التوهُّم ، ووُجِّه العقل لدى الغربيين في عصرهم الحديث نحو مجال مهيَّأ للعمل فيه وهو ميدان الكون المادي وتأمل سنن الله في المجتمع البشري، فتغيَّرت الحالة لدى الغربيين وقامت لهم حضارةٌ ماديَّةٌ شامخةٌ .

وفي الإسلام حينما جاء الإسلام وجَّه العقل المسلم لسلوك المنهجيَّة السديدة في بناء الحياة وإقامة الحضارة استمداداً للعقيدة من عالم الغيب والشهادة، وللشريعة من خالقه الذي حدَّد هدف وجوده، ويعلم طبيعته وحاجاته، وإعمالاً للعقل في فقه الوحي من جهة، وفي التعامل مع الكون المحيط به لتحقيق الخلافة في الأرض من جهةٍ أخرى .

(١) مبادئ الفلسفة، أ. س رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص ٢٥، دار الكتاب العربي، بيروت.

وباستيعاب الصحابة وتابعيهم بإحسان لهذا المنهج القويم تحقَّق الظهور الحضاري « الإنساني الخلقي العلمي » ولكنْ دخول المؤثرات الفكريَّة ومنها الفلسفة الميتافيزيقيَّة، وانشغال كثير من علماء المسلمين بها، ثم اشتغال المجتمع المسلم كلِّه بقضاياها كان من أسباب التراجع الحضاري للمسلمين، وفساد حياتهم الفكريَّة والاجتماعيَّة .

ولقد حذَّر علماء السَّلف من هذه الفلسفة التأمليَّة المسمَّاة بـ « الفلسفة وبعلم الكلام » وبيَّنوا أنها تمثِّل منهجيَّةً مخالفةً للمنهجيَّة الإسلاميَّة في العلاقة بين مصدري المعرفة : الوحي والعقل أمام ميداني الغيب والشهادة، ووقع ما حذروا منه .

المملكة العربيَّة السعوديَّة بالتزامها منهج الإسلام -وبالذات في سياستها التعليميَّة- استبعدتْ تدريس تلك الفلسفات خاصةً في المراحل ما دون الجامعيَّة، ووقت عقول ناشئتها من أوهام الفلاسفة وآرائهم المتناقضة في قضايا الوجود التي جاء الوحي فيها بالحقِّ الصراح، وهي الأوهام التي تحشى بها أذهان كثير من أبناء المسلمين في مجتمعات كثيرة منسوبة إلى أصحابها القدماء والمحدثين بهالةٍ من الإبراز لهم بصفتهم النجوم اللامعةً في التاريخ البشري مع إهمال أو عرض باهتٍ للتصوُّر الإسلامي في هذا المجال، وغالباً ما يقدَّم لهم التصوُّر الإسلامي من خلال مقولات علماء الكلام حسب المذهب المتَّبع في ذلك المجتمع .

ولهذا تجد أنَّ هذا الشاب ينشأ مُبَلْبَلَ الفكر في أمر عقيدته، سهل الانحراف عنها، ويثمر ذلك هامشيَّةً لهذه العقيدة في حياته بحيث توجّه المصلحة الآنيَّة، والمنافع العاجلة حركته في الحياة وينساق بسهولة للجواذب التي تصطاد الناس لتوثقهم في حبالها، منظَّمات أو أحزاب أو تيَّارات فكريَّة حتى ولو كانت ظاهرة العداء لدينه .

لقد وعتْ المملكة بحسِّها الإسلامي هذا الأمر فغرستْ العقيدة مستمدَّةً من نصوص القرآن والسنة بوضوحها وقطعيَّتها وشمول عرضها في عقول الناشئة ونفوسهم، وعلَّمتهم أساسيات الأحكام الشرعيَّة في عباداتهم ومعاملاتهم ومنهج تطبيق الإسلام في حياتهم ثم وجَّهتْ عقولهم بهذا الزاد الجليل نحو ميادين العلم النافع التي تنتج فيها العقول من جهة، وتحتاجها الأمة والمجتمع من جهة ثانية، وهي ميادين :

- الأحكام الشرعيَّة بفقه النصوص وفق الأصول العلميَّة .
- العلوم الإنسانيَّة بالتأمل في سنن الله في الأنفس والمجتمع البشري .
- المعارف التقنيَّة بالنظر في الكون واستثمار خيراته .

وكدليل تطبيقي على السَّلامة الفكريَّة التي يكسبها هذا المنهج أتباعه تجد أنَّ العالم من أي الميادين الثلاثة المذكورة في مجتمعنا يعيش قريباً من الناس بحكم اشتراكه معهم في العقيدة والعبادة والسُّلوك الخلقي، متفاعلاً مع همومهم لأنها ميدان نشاطه الذي توجَّه إليه، وتجده راضياً عن جهوده هذه معهم، فهو منسجمٌ مع أفكاره ، يبحث وهو منسجمٌ مع الناس ، وهو يشيع بينهم هذه الأفكار .

وهذا خلاف ما عليه أصحاب الفلسفات التي أصبحتْ الآن تجتاح ميادين الأدب بفنونه حيث يعيشون بعيداً عن الناس منعزلين مع أفكارهم أشقياء بهذه الأفكار، وأشقياء في موقعهم بين الناس .

* أيضاً فإن تطبيق المملكة للشريعة حقَّق الأمن الفكري للناس من حيثيَّة دقيقة لكنها مهمَّةٌ تتمثَّل في أنَّ الدولة التي لا تطبِّق الإسلام وهي قائمةٌ في مجتمعٍ مسلمٍ لا تستطيع دائماً التصريح بلادينيَّتها ، إذْ تأتي ظروفٌ تحتاج فيها

إلى إرضاء الجمهور واستجلاب ولائه الوطني، وهنا المأزق .

- فالجمهور المسلم رضاه المحقّق في أن يحكم بالإسلام وأن تبني الدولة مواقفها من خلاله، وأن يكون انتماء رجال الدولة لتعاليمه .
- والدولة في بنيتها الثابتة لا دينيَّة .

والمخرج الذي تلجأ إليه بعض هذه الدول من هذا التناقض هو التغطية على أهوائها وسوءاتها المخالفة للدِّين وعلمانيَّتها من خلال تلبيس الحق بالباطل وإلباس أنظمتها ثياباً إسلاميَّةً، وإيجاد المسوغات التي تسوغ كل خطأ تسويغاً شرعيّاً .

وهذا بلا شكٍّ من أسباب إحداث الغبش الفكري وتلويث عقول الناس وتصوُّراتهم المتعلِّقة بالدين، وهو جدٌّ خطيرٌ لأنه يُذيب على طول المدى حقيقة الدين من قلوب الناس، ولأنه من زاوية أخرى يجعل الناس في ظل هذه الدولة في حالة فزعٍ فكريٍّ مما تطرحه عبر تصريحات مسؤوليها وصحافتها ووسائل إعلامها بين تصديقه وتكذيبه مما يحدث البَلْبَلَة والاضطراب .

المملكة بحكم تطبيقها للإسلام وولائها لتاريخه لا تحتاج إلى سلوك هذا المسلك الوخيم، وبحكم وعي مسؤوليها وعلمائها بخطورة هذا التزييف واعتباره جراءةً على الله وتلاعباً بدينه وبيعه بهذه المكاسب السياسيَّة الزهيدة فإنهم ينأون بأنفسهم عن مواقعته واستغلال نتائجه .

يقول الملك عبد العزيز - رحمه الله - : « متى اتَّفق العلماء والأمراء على أن يستر كلٌّ منهم على الآخر فيمنح الأمير ، والعلماء يدلِّسون ويتملَّقون ، ضاعتْ أمور الناس، وفقدنا - والعياذ بالله - الآخرة والأولى»[1] .

(١) السعوديُّون والحلّ الإسلامي، ص ٣٦.

وثمرة هذا الموقف السَّديد هو بقاء حقائق الدّين في معتقداته وأحكامه كما قرَّرتها نصوص الشريعة ونظَّرها العلماء، والدولة والمجتمع كلُّه بسائر أفراده مطلوبٌ منهم « من خالقهم أوَّلاً ومن الدولة للمجتمع، ومن المجتمع للدولة ثانياً » أن يتمثَّلوا هذه المعتقدات والأحكام في مختلف شؤون الحياة، فإن ألجأت الضرورة أو جر الكسل والضعف البشري أحداً على ضعف الالتزام بشيء من مطلوبات الدين فإنه لا يتمادى، سواءٌ كان فرداً عادياً أو مسؤولاً ليضفي على كسله الشرعيَّة بتحليل محرَّم فَعَلَهُ، أو تجويز ترك واجب تركه، لأنَّ مما تعلَّمه الجميع في العلم الشرعي أن فعل الذنب وترك الواجب معصيةٌ، أما تحليل الحرام المقطوع بحرمته وتحريم الحلال المقطوع بحلِّه فهو كفرٌ والعياذ بالله .

* وللصَّفاء العقدي الذي حقَّقه التعليم في مقرّرات العلوم الشرعيَّة فقد وَقَى الله المجتمع السعودي -بدرجة عالية- كثيراً من المؤثِّرات الهادمة للفكر والسُّلوك التي ظهرتْ آثارها في كثيرٍ من المجتمعات التي فقد أهلها أو ضعف لديهم الفهم السَّليم للإسلام .

- لقد وَقَى الله مجتمعنا من التضليل الفكري المتمثِّل بترويج الكفر والعقائد الفاسدة والأساطير الخرافيَّة التي يشيعها أهل الدجل والشعوذة، أو رجال الأدب والفنِّ ونحوهم ممن استغلُّوا نقص الوعي الدِّيني لدى الناس وحرية الإفساد في مجتمعاتهم فعاثوا فساداً فكريّاً أصبح هو نموذج التَّفكير الأمثل في المجتمع الذي يتباهى به الناس، أو على الأقل الذي يقبله الناس لكثرة شيوعه .

في مجتمعنا لا يجد هذا التضليل سبيله إلى الرَّواج والسِّيادة، فهو مرفوضٌ نظاميّاً بحكم مصادمته للإسلام الذي حرَّم الدجل والشعوذة والسِّحر، والاستهزاء بالدين وترويج الكفر، وإذا تدسَّس شيءٌ من ذلك

إلى المجتمع فإنَّ الناس يرفضونه ويمارسون ضغطاً اجتماعيّاً ضدّه ينتهي به إلى التلاشي .

- أيضاً حَمى الله المجتمع السُّعودي من بذرة التكفير التي تثمر « الهوس السُّلوكي » المتمثِّل بالتعدِّي على حقِّ السّلطة في معاقبة المجرمين بمباشرة القيام بها فيما هو حقُّها ، أو بتكفير المجتمع ومن ثمَّ استحلال دمه وماله والهجوم المسلَّح عليه ، أو بالسَّخط على الدولة والتعبير عن ذلك بتدمير مؤسساتها ، و نحو ذلك من الأفعال .

لقد وقع في المملكة تفجيران شهيران أحدهما في العليا بالرِّياض والثاني بالخبر .

أمَّا الثاني فلم تعلن حتى كتابة هذه السُّطور نتائج التحقيق بشأنه .

وأمَّا الأول فقد كشفت التحقيقات ، والحديث المباشر لمرتكبيه أنَّ الأفكار التي تشبَّعوا بها واندفعوا بسببها لتلك التصرُّفات كانتْ مستمدَّةً من خارج المملكة ومن كتب وأشخاص مَوْتُورين ضدَّ المجتمع السعودي فانخدع بهم أولئك الفتية .

والأهم في هذه النقطة هو موقف المجتمع السُّعودي كله بعلمائه وأئمَّة مساجده ومثقَّفيه وعامَّته المستنكر لذلك الفعل ، والذي تشعر أن عقله وحسَّه الديني وذوقه الإنساني كلّها رافضةٌ له وهم يتحدَّثون عنه .

والقيمة هنا تبرز إذا قارنَّا هذا الموقف بمواقف الآخرين في مجتمعات أخرى حينما يحدث تصرُّفٌ من هذا النوع يكون الذي فعله معلناً التزامه الإسلامي أو يُنسبُ إلى الإسلاميِّين وإن لم يعرف فاعله الحقيقي[1] ، فإنك تجد

---

(١) أثبتت التحقيقات في حوادث عنف منوعة أنَّ جهات غير مسلمة وراءها بهدف إشعال الفتنة بين حكومات الدول الإسلاميَّة والإسلاميِّين فيها ، وقد ذكرتْ « صحيفةُ الشرق الأوسط » أن وثائق تركيَّةً أثبتتْ أنَّ الموساد الإسرائيلي هو الذي اغتال الكاتب العلماني التركي الملحد لإغراء الحكومة بمطاردة الإسلاميِّين . حتى لا تكون فتنة ، عمر عبيد حسنة ، ص ١٣٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ.

من كثيرٍ من الناس حتى من العلماء تفهُّماً لذلك التصرُّف وربما تشجيعاً له بأنه «عنف ألجأت هؤلاء إليه الدولةُ نفسها » أو أنَّ الدولة فقدتْ حرمتها الشرعيَّة بلادينيَّتها ونحو ذلك من المسوِّغات التي تعلن بعضها الصحف ، أو لا تعلن ، ولكنها تتداول بين الناس .

إنَّ فكر العنف المهووس يفقد في المجتمع السعودي بذوره ومسوغاته معاً .

فلا العقيدة الإسلاميَّة التي عمادها منهج أهل السنة والجماعة تفتح المجال لشيءٍ من ذلك ، بل هي ضدّ الفتنة وإشاعة الفوضى وإحداث التفرق وفساد القلوب .

ولا نظام الدولة العام وموقفها يسوغ هذا المسلك ؛ إذ النظام مبنيٌّ على الشريعة الإسلاميَّة وموقف المملكة القائم هو رعاية الدعوة الإسلاميَّة في الداخل والخارج .

أما التصوُّر التطبيقي فإنه لا يسوِّغ أي تصرّف من هذا القبيل ، وهذا ما تنصُّ عليه عقيدة أهل السنة من « حرمة الخروج على الإمام حتى لو كان فاجراً ما دام مقيماً الصَّلاة للناس »[1] .

فلا ثغرة إذنْ ليداخل هذا التفكيرُ « فكرُ العنف الأهوج » عقلَ المسلم في المجتمع السعودي إلا أن يكون نقصاً في الشخص ، أو عمليَّة غسيلِ دماغٍ ونحو ذلك ، فهذه أمورٌ فرديَّةٌ خارجةٌ عما نحن بصدده .

* قد يتساءل بعض من لا يدرك المصالح الشَّرعيَّة في الحدود التي فرض الله على المجتمع المسلم القيام بها قائلاً : بما أن المملكة تطبق الشريعة الإسلاميَّة

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، بتحقيق التركي والأرناؤوط ، ٢/ ٥٤٠ ، مصدر سابق .

فهي تطبِّق حدَّ الردة على من يتنكر للإسلام بإعلان خروجه منه، أو السخرية بالله أو بالرسول أو بشريعة الله، ألا يعدُّ قتل المرتد -كما يتصور هؤلاء- إخلالاً بالأمن الفكري للناس، ومصادرةً لحرية القول والدعوة إلى كل ما يراه الإنسان؟

وإجابة هذا التساؤل تتمثّل في أمرين :

الأول : أن التدين وفق المنظور الشرعي مبناه الاختيار ، فالإسلام دعوةٌ تتجه للناس ليدينوا به طوعاً وبناءً على قناعة منبثقة من دواخلهم ، ولا قيمة لإسلام ظاهريٍّ واقعٍ تحت ضغط معيَّنٍ بينما الباطن مطمئنٌّ بالكفر منشرحٌ له، فلا إكراه في الدين ؛ ولهذا كان منهج المسلمين في فتوحاتهم دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن لم يستجب هؤلاء لم يُرغموا على الإسلام في ظلِّ دولته وتحت سلطة المسلمين وإنما يبقون على ديانتهم -يهوديةً أو نصرانيَّةً- مَحفُوظِي الذِّمَام، على أن تؤخذ منهم الجزية .

الثاني : أن الإسلام ليس مجرَّد فكرة فلسفيَّة خاصة بفئة محدودة وليس رؤيةً اجتهاديَّةً في أمر مؤقَّت توازيه في المجتمع رؤًى مساويةٌ، وليس الإسلام أيضاً ديانةً قلبيَّةً فرديَّةً .

كلا إنَّ الإسلام « في الدولة المسلمة » هو خيار المجتمع كله الذي التزم به فكراً ونظام حياة، والمرتد عن الإسلام بعد الدخول فيه يكون بارتداده مسيئاً إلى الإسلام، وداعياً للتفلُّت منه، وساخراً بأهله وبهذا يصبح خائناً للمجتمع كله، ومعادياً له، وساعياً لتحطيم نظامه وحضارته، فهو جريمةٌ بحقِّ الأمة والمجتمع .

ولهذا فإنه لا يمارس هذا الفعل إلا شخصٌ أو أشخاصٌ يقصدون بالأمة شراً أو أنهم أجراءُ لأعداء الأمة وللدولة المسلمة[1] ، وقد أخبر الله عن هذا الصنف بقوله : ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[2] .

وخيانة الوطن، والعمالة للأعداء ، وتَهْديْمُ النظام العام تعدُّ -كلها- جرائم كبرى عالمياً، والارتداد عن الدين في دولة الإسلام مثلها ، يقول الأستاذ محمد المبارك في حديثه عن هذا الحد : «ولا تقبل الدولة إعلان الخروج عن العقيدة الإسلاميَّة ، وتعتبر هذا العمل تمرُّداً على نظام الدولة، ودعوةً للانقضاض عليها، وجزاء المرتد هو جزاء كل مُعْلِنٍ لتهديم نظام دولة ، هو القتل إذا أعلن ذلك، أمَّا إذا اقتصر الأمر على عدم الاعتقاد في نفسه دون الإعلان فما عليه من سبيل؛ لأن الدولة لا تحاسب على السَّرائر والبواطن، وإنما تحاسب على ما يظهر ويعلن .

إنَّ الدعوة إلى عقيدة أخرى مخالفة للعقيدة الإسلاميَّة من حيث الأساس، وإلى إزالة الصفة الإسلاميَّة للدولة نتيجة ذلك لا يسمح به الإسلام بداهةً؛ لأنه حينئذ يسمح بإزالة وجوده ويحكم على نفسه بالزوال، بل يدعو إلى مكافحة هذه الظاهرة حين تبدو كل المكافحة»[3]، وفي الحديث الذي رواه البخاري قَرَنَ الردة عن الدين بالخروج على الجماعة؛ لأنه كما يقول القرطبي

---

(١) حتى لو افترض أن الشخص زاغ قلبه عن الحق لشبهه عارضة فإنه لا ينفك عن أحد أمرين :
- أن يخفي هذا الزيغ في طوايا ضميره مكيفا ظاهر حياته مع وضعية المجتمع المسلم فهذا مصون الدم والمال، وحسابه على الله .
- أو أن يعلن ز يغه وكفره بالدين متعاليا بهذا الزيغ على الحق الذي كفر به فيندرج فيما ذكر آنفا .

(٢) الآية رقم (٧٢) من سورة آل عمران .

(٣) نظام الإسلام - الحكم والدولة ، لمحمد المبارك ، ص ١١٧ ، مصدر سابق .

رحمه الله : « إذا ارتد فارق جماعة المسلمين »[1] .

وعليه فإن تنفيذ حد الرِّدَّة في الدولة المسلمة كما حدث في المملكة من أبرز التطبيقات التي تسهم في حفظ النظام العام، وحماية عقائد الناس، وتحقق الأمن الفكري باختفاء أهل الوساوس والتشكيك أو ذهابهم بعيداً عن المجتمع المسلم إلى مجتمعاتٍ أخرى تقبل هذه الوساوس .

وهذا الحدُّ من أندر الحدود إقامةً في المملكة لندرة اكتمال موجباته، وهو الوضع الطَّبيعي في المجتمع الإسلامي أقصد ندرته؛ لأن الإسلام دين الفطرة والعقل فلا يخرج من دخله إلا شذوذا ولبشاعة الجرم ورفض السّاحة الاجتماعيَّة لفاعله أوَّلاً ، ولصرامة الحدِّ ثانياً .

والحكم هذا ليس خاصاً بحدِّ الردَّة، ولكنه عامٌ في الحدود الشرعيَّة كلها، وهي قضيَّةٌ يغفل عنها كثيرٌ من الرافضين لتطبيق الشريعة الإسلاميَّة، إذ يقوم في أذهانهم ارتباطٌ بين الحدود في صورتها الشرعيَّة وبين الجرائم في انتشارها في المجتمعات الكافرة أو التي انفلتَتْ من تطبيق الشريعة فلا يتصوَّرون إلا آلاف الرقاب والأيدي تقطع، والمجتمع وقد أصبح مشلولاً .

وهو تصوّرٌ أبله يربط بين وضعين مختلفين ، فالحدود الشرعيَّة إنما تقام في المجتمع المسلم الذي تقوم تصوُّرات أفراده وحركاتهم على وعي بموقع الحدود في خريطة شريعتهم من جهة، وفي خريطة حياتهم من جهة أخرى فيتباعدون عن موجباتها حتى تبقى مجرَّد زواجر سلطوية[2] نظريّة أمامَ عموم

---

(١) انظر : الحديث في صحيح البخاري، كتاب الديات، الباب السادس، وباب قول الله تعالى ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾، وانظر قول القرطبي في فتح الباري ١٢/ ٢٠٢ .

(٢) من تعريفات الحدود لدى العلماء أنها زواجر شرعها الله لمنع عباده من ارتكاب محارمه، وأصل معنى=

المجتمع إلا شواذ ينزلقون من هذا المستوى فيتنزل عليهم التطبيق .

إنَّ الجريمة السلوكيَّة والخرق العملي للنظام ومصادمة الخير وأهله إنما ينبع من نفس شرِّيرة استلهمتْ الفجور وغرقتْ في الشرور ؛ إما من تربية بيئيَّة أو تعليم مدرسيٍّ أو إعلاميٍّ أو غيرها من القنوات الكثيرة في عالم اليوم ؛ أي أن الإجرام وليد فساد الذوق الإنساني وانحراف الفكر وتجاهل الحدود الشرعيَّة التي وضعها الخالق لحماية المجتمع من الإجرام .

لذا فإن التربية على الإيمان الواعي بفلسفة الحدود في الإسلام وتفهيم الناس لأبعادها خاصَّةً في ظروف تطبيقها يسهم إسهاماً كبيراً في الارتقاء بالذوق الإنساني نحو توقّي ما يصل بالإنسان إلى مواجهة الحدود في استقامة الفكر وحفظه من الانحراف .

يقول محمد حسين الذهبي – رحمه الله – : « فالحدود بفلسفتها ونظامها ومناهجها وضوابطها ، وكل ما يتصل بها مما يدخل في إطار الفكر والنَّظر متى دخلتْ حقل التربية الإسلاميَّة والتوجيه الإسلامي للناشئة ، وأصبحتْ خيوطها أساسيَّة في النسيج الذي تتكوَّن منه عقولهم وضمائرهم ، وتنفعل به وُجْدَانَاتهم وعواطفهم ، متى دخلتْ « الحدود » حقل التربية من هذا الوجه وأصبحتْ جزءاً من المناهج التعليميَّة لناشئة المسلمين ، يتمثَّلونها وهم في سنٍّ غضَّة من البراءة وسلامة الفطرة فقد ركزنا بذلك في هذه النفوس المستجيبَة للحق والخير بفطرتها أعظم ركيزة تتولَّد عنها حالٌ نفسيَّةٌ خاصَّةٌ يسدُّ فيها الوازع المانع عن مقارفة هذه الآثام التي تدور الحدود عليها ! .

= الحد هو ما يحجز بين شيئين ، فيمنع اختلاطهما .

انظر فتح الباري ١٢/ ٥٨ ، والموسوعة الفقهية « الكويتية » ١٧/ ١٣١ .

إنَّ هذا الذي تحقِّقه « الحدود » تربويّاً وتوجيهاً ، أعمق وأبعد في المنع عن جرائم الحدود وغيرها من إقامة شرطيٍّ على رأس كلِّ مواطن يحول بينه وبين هذه الجرائم ! فالضمير الذي يحوي ضمن مكوِّناته صورةً كاملةً للحدود بأبعادها الدينيَّة والنفسيَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة هو حارسٌ أكثر أمانةً وصدقاً وقدرةً على المنع من أيَّة رقابة أو حراسة خارجيَّة ! ويكفي أنه بمنأى عن المساومة والتستُّر والرشوة .

الحدود في إطارها التربوي عاصمٌ قويٌّ يمنع جمهرة الناشئة حينما يصبحون رجالاً ونساءً من مواقعة الحمى ؛ لأنهم يحملون داخلهم جهاز الضمير الذي يقف بالمرصاد لمن يهمُّ بمثل هَذه المواقعة »[1] .

والخلاصة أنَّ الحدود الشرعيَّة بما فيها حدُّ الرِّدة إذا غُرستْ فلسفتها في وعي الناشئ، ثم عاش الناس على هذا الوعي مع وعي موقع الجريمة في المجتمع شرعيّاً وإنسانيّاً ، فإن هذا يمثل سياج صيانة لفكر أفراد المجتمع ووجداناتهم من أمرين :

- من الانخداع بإغراءات الشيطان باستحسان الجريمة ، ومن ثمَّ مقارفتها .
- ومن تلويث جوِّ المجتمع ككلٍّ بنشر الفساد ومضايقة أهل الصلاح والاستقامة الذين يمثِّلون سواد المجتمع الإسلامي .

والمجتمع السعودي لا يمثِّل الكمال ولكنه يعطي النموذج النظري السَّامي في هذا العصر لهذه الآثار الإيجابيَّة لتطبيق شرع الله في مجال الأمن الفكري والطهر الاجتماعي .

---

(١) أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ، لمحمد حسين الذهبي ، ص ١٢٢و١٢٣ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ.